نفي النفي تأكيد للنفي

للدكتور ابراهيم انيس

نعم : لغويا نفي النفي تأكيد للنفي ، وليس كما شاع بين القدماء من النحاة أن نفي النفي إثبات .

أما من الناحية المنطقية والرياضية فالقضية الشائعة سليمة لاغبار عليها وليس لنا أن نعترض على قول الرياضيين حين يرمزون إلى هذه القضية برموز فيقولون مثلا — (— ٣) = ٣ . وكذلك في القضايا المنطقية ، نستطيع بسهولة تصور صحة تلك القضية الدائمة التي طالما سمعناها من أفواه أساتذتنا يرددونها فيقولون « نفي النفي إثبات » !

ولكن للغات منطقها الخاص ولأساليبها طرقها الخاصة التي يجب عرضها وتفسيرها لا في ضوء المنطق العام أو الرياضة بل في ضوء المنطق اللغوي والاستعمال اللغوي ، وفي ضوء العوامل النفسية التي قد يتأثر بها المتكلم والسامع حين التعبير عما يدور بخلد كل منهما بأسلوب لغوي خاص .

واللغات ليست إلا أحد المظاهر الاجتماعية . ولهذا تخضع في تطورها إلى تلك القوانين الاجتماعية التي لا تطابق دائما القوانين العقلية من منطقية أو رياضية . فقد تؤدي المقدمات المنطقية إلى نتيجة حتمية ولكن اللغات وقد تشعبت عواملها وظروفها وصعبت الاحاطة بجميع تلك العوامل والظروف تسلك طريقا غير طريق المنطق العقلي ولا يلازمها الاطراد في كل عناصرها بل لابد فيها مما يسمونه بالشذوذ ومخالفة القاعدة العامة وليس مثل هذا بحائر في علم المنطق أو الرياضة .

تلك هي الناحية التي أخطأها البصريون حين أرادوا أن يصوروا لنا الأساليب

اللغوية مطردة فى كل تفاصيلها وألجأهم هذا إلى التأويل والتخريج لكل ما روى مخالفا لأقيستهم .

فالمظاهر الاجتماعية لاتخضع للقوانين العقلية المنطقية أو الرياضية فى كل تفاصيلها واللغات ليست إلا أحد تلك المظاهر الاجتماعية .

والنفى فى اللغات رغم أنه معنى عقلى مشترك بين جميع العقول عبرت عنه اللغات بسبل وأساليب لاتطابق الأساليب المنطقية أو الرياضية .

فقد يريد المتكلم أن ينفى جملة من الجمل أو معنى من المعانى وقد تدفعه حالته النفسية أو ظروف الكلام إلى تأكيد هذا النفى فيكرر أداة النفى مثنى وثلاث ورباع وقد شاهدت هذه الظاهرة اللغوية ، فى كل لغات العالم . ولست أعرف لغة من اللغات تعبر عن نفى النفى الذى ينتج الاثبات بأى أسلوب من الأساليب ألبتة إلا أن نلجأ للتعسف والتكلف . بل ان أساليب الاثبات فى كل لغة واضحة جلية ووسائل تأكيد الاثبات واضحة جلية أيضا أما تأكيد النفى فيغلب أن يكون بتكرار أداة النفى فى موضع ما من الجملة يختلف بين لغة وأخرى .

والنفى وهو معنى عقلى تعبر عنه كل لغات البشر يعد من أقدم الظواهر اللغوية بل ربما كان أقدمها . فالطفل الذى عرف البكاء قبل الضحك وعبر عن النفور قبل التعبير عن الرضا يلقى لنا ضوءا على نشوء النفى فى لغات البشر . وإن اشتراك أداة النفى بين معظم اللغات لما يؤيد ما نذهب اليه من أن النفى من أقدم الأساليب اللغوية فالأساس الصوتى لأداة النفى فى معظم فروع الفصيلة الهندية — الأوربية . هو صوت النون وفى الفصيلة السامية هو صوت اللام . وقد جمعت العربية بين الأساسين فأحيانا يكون فيها أساس أداة النفى «اللام» وأحيانا يكون «النون» ثم زيد عليهما صوت ثالث شبيه بالنون واللام وهو الميم . ولم تنفرد العربية بهذا الصوت الأخير بل شاركها فيه لغات بشرية أخرى .

فنحن نرى أن الأساس الصوتى لأداة النفى هو أحد الأصوات الثلاثة اللام والنون والميم ويندر أن تشذ لغة من لغات العالم عن هذا

ويجب ألا نلتمس علاقة طبيعية بين هذه الأصوات الثلاثة . وبين النفى الذى

هو معنى عقلي كما يفعل اللغويون فى تفسير الكلمات التى تظهر علاقة صوتها بمعانيها كالحفيف والزفير وغير ذلك من تلك الكلمة التى يسميها الغربيون Onomatopoeia بل يكفى إذا كان لابد من تفسير ظاهرة التعبير عن النفى بأحد تلك الأصوات أن نقول إن النفى من أقدم الأساليب اللغوية وتلك الأصوات أقدم الأصوات الساكنة فى لغة الانسان الأول . وليس لدينا من دليل على مانزعم سوى الطفل فى مراحله الاولى قبل أن تنمو فيه ملكة التقليد للغة من حوله بل تصدر الاصوات منه فى شكل غريزى ليس للبيئة أثر فيها .

فالطفل فى مراحله الاولى تظهر عليه مظاهر النفور قبل الرضا كما تكون اللام والنون والميم مجموعة من الاصوات الساكنة هى أسبق أخواتها فى النطق بها . فلعل الانسان الأول استغل تلك الاصوات الثلاثة التى كانت أسبق الأصوات الساكنة فى نطقه لعله استغلها فى التعبير عن ذلك المعنى العقلى أعنى النفى الذى هو قديم كقدم الانسان كما استغلها فى ظواهر لغوية أخرى بطبيعة الحال .

وليس يغنى عنا شيئا أن نتلمس دليلا من لغات الأمم الأولية بصدد هذه الظاهرة فالأمم مهما توغلت فى البداوة لا تمثل لغتها إلا مرحلة متأخرة جدا من مراحل نشأة الكلام .

فالعلاقة التى يمكن أن نتلمسها بين اللام والنون والميم وبين النفى يجب ألا نعدو القول إن كلا منهما قديم متوغل فى القدم .

وإذا صح أن الطفل يمثل فى أسابيعه الأولى مرحلة من مراحل نمو اللغة عند الانسان الأول — وهو مايتادى به كثير من المحدثين — كان تصورنا لنشوء النفى واشتراك أداته بين معظم لغات العالم مبنيا على أساس على صحيح .

وللبرهنة على مانحن بصدده من أن نفى النفى لغويا تأكيد للنفى ، علينا أولا أن نضرب أمثلة قديمة وحديثة من لغات متباينة أوربية ، وغير أوربية ، توضح مانذهب اليـــه من أن المرء إذا شاء تأكيد نفيه كرر الأداة . ففى الانجليزية القديمة :

« Nan man nyste nan nothing »

ومعنى هذه الجملة بالانجليزية الحديثة مترجمة ترجمة حرفية هو :

No man not knew nothing.

وفى انجليزية القرون الوسطى نرى بين أقوال تشوسر :

He neuere yet no vileyne ne seyde in al his lyf unto no maner wight.

ومعنى قول تشوسر مترجما ترجمة حرفية إلى الانجليزية الحديثة هو :

He never yet no bad thing no said in all his life to no man whatsoever.

ومن الانجليزية الحديثة يقول Hardy فى إحدى رواياته مستعملا أحد الأساليب الشائعة بين العامة :

I can't do nothing without my staff

بل إن أولئك الذين عاشوا فى انجلترا بعض الزمن قد سمعوا هذا النوع الشائع من الاستعمال الذى يحارب فى المدارس دون جدوى لأنه مع شيوعه متأصل فى تاريخ اللغة الانجليزية . فالعامة يكررون أداة النفى لمجرد تأكيد النفى . فكثيرا ما سمعنا لانجليز يقولون :

I haven't done nothing.

وكذلك نلحظ هذه الظاهرة فى اللغة الفرنسية مثل :

On ne le vot it nulle Part .

كما نصادفها فى الاسبانية والألمانية ، بل وفى العنصر السلافى أيضا كالروسية . كذلك فى الأغريقية قديمها وحديثها . فاذا انتقل الباحث إلى بيئة لغوية ، غير الفصيلة الهندية — الأوربية رآها أيضا فى اللغات الأولية فى وسط جنوب أفريقيا البانتو أو بعبارة أدق إحدى لغات البانتو ، الكنغو ، مثل :

كفنجيدى كوندى ووليكو كوناجا كوندى تجنزيكو نيلنجا كواكو .

ومعنى هذه العبارة حرفيا :

مافعل هو لاشرا ماشعر هو لا بألم

ماهم مامرضى = مافعل شرا . ماشعر بألم ماهم مرضى .

كيف يمكن إذن أن نفسر هذه الظاهرة التى شاعت فى الغالبية العظمى للغات العالم ؟ .

هناك حقيقة يجب أن نتذكرها دائما لنستطيع تفسير هذه الظاهرة التى نحن بصددها وتلك الحقيقة هى أن تكرار أداة النفى لتأكيد معناه يقع دائما فى تلك اللغات التى صغرت فيها الأداة فأصبحت مكونة من صوت ساكن واحد مثل n أو ne وهكذا .

فى تلك اللغات يغلب اتصال هذا النوع من الأداة بالكلمة التى تليها فلا يستطاع تمييزها منها إلا بمجهود عقلى يفر منه عادة الرجل العادى . ولهذا مال الناس فى كلامهم إلى الرغبة فى تكرار الأداة فى مواضع مختلفة من الكلام الواحد لاظهار أهمية النفى وتأكيده فى ذهن المتكلم والسامع خشية أن تغمر أصوات الجملة ذلك الصوت الضئيل الذى يعبر عن النفى فلا يلتفت إليه .

من أجل هذا يعمد المتكلم تحت تأثير شعور قوى إلى تكرار الأداة ليجعل النفى مؤكدا لامجال للشك فيه .

وتتضح أهمية هذا التفسير حين نعرف أنه لما طالت أداة النفى فى الانجليزية ، فأصبحت not وفى الألمانية nicht قل تكرارها فى الجمل . ولكن انكماش أداة النفى الانجليزية not إلى n't فى ألسنة العامة أعاد إلى الكلام تكرار الأداة فنسمع الآن تكرارها فى جمل مثل :

I haven't said nothing .

هذا إلى أن الأداة الواحدة فى الجملة الطويلة ، تتطلب مجهودا عقليا من المتكلم والسامع . فلا بد من تذكرها خلال الحديث وقد يطول الكلام فينسى أنه بدأ بأداة نفى . ولهذا يحرص المتكلم والسامع على تكرارا لأداة للتمهيد إلى ذهن كل منهما معنى النفى الذى أوشك أن يغمره طول الكلام

أسائل نفسي بعد هذا الشرح ما نصيب البيئة اللغوية السامية من هذه الظاهرة ؟ سأحاول في هذا المقال أن أبين ظاهرة تثنى النفي في اللغة العربية ، دون التعرض لغاتها السامية ، التي أرجئ البحث فيها لفرصة أخرى .

أصبحت الآن أرجح أنه قد أتى على اللغة العربية طور لغوي شاعت فيه ظاهرة التثنى لمجرد تأكيد النفي وأن العربي القديم لم يعمد إلى هذا إلا لحرصه على إظهار معنى النفي وتوضيحه لاستعماره الأداة التي كانت تجرد « لا » أو « ما » أو « إن » ، وكل من هذه الأدوات الثلاث تركب الأداة من صوت ساكن واحد هو اللام أو الميم أو النون . فاتخذت اللغة من أجل هذا أحد طريقين إما تكرار الاداة في مواضع مختلفة من الجملة أو تكوين ما أسميه بأداة النفي المركبة .

وقد رويت لنا اللغة العربية . وفيها صور كثيرة لأساليب تكررت فيها الاداة رويت لنا الادوات المركبة . وقد استطاع النحاة تفسير معاني بعض أدوات النفي نلوا عن تفسير البعض الآخر لعنايتهم بعملها الاعرابي .

فأدوات النفي في اللغة العربية : إما بسيطة وهي « لا » ، « ما » ، « إن » ، أو مركبة أكثر من واحدة من هذه الادوات مثل : لن . لم . إلا . ما إن . فالأولى مكونة أداتي النفي لا ، إن والثانية من « لا » ، « ما » والثالثة من « إن » ، « لا » ، رابعة من « ما » ، « إن » ، والقسمة العقلية . تقتضي أن يكون بين الادوات المركبة ثنان مركبتان غير الأربعة السابقة هما « إن ما » ، « مالا » ولست أعرف نصا يا استعمل فيه مثل هاتين الاداتين المركبتين للتعبير عن النفي .

والنحاة في تفسيرهم للأدوات المركبة الأربعة عنوا العناية كلها الناحية الاعرابية موا بجزم المضارع بلم وبنصبه بلن . وألفوا بابا مستقلا سموه الاستثناء بإلا . جاءوا إلى « ما إن » ، فقالوا إن « إن » زائدة حين أعياهم تفسير هذه الاداة المركبة هرة التركيب . .

ولا شك أن النفي بأداة مركبة آكد وأقوى من النفي بأداة بسيطة وتشترك الأدوات المركبة في صفة واحدة وهي أنها جميعا تفيد تأكيد النفي وأن النفي معها د من نفي بأداة واحدة . ولكن الاستعمال اللغوي فرق بين تلك الادوات .

المركبة فاختصت كل منها بناحية تنظيمية Syntactical . فمنها ما يختص بالماضي ومايختص بالمضارع ومنها مالا عمل له فى الجملة إلا مجرد النفي ومنها أداة تنفي مابعدها وأخرى تنفي ماقبلها وسيأتي بيان هذا النوع الأخير . على أن الادوات المركبة رغم تلك الخصائص فى الاستعمال تشترك جميعا فى أنها تنفي نفيا مؤكدا .

وقد أجمع النحاة على أن النفي « بلن » آكد . بل بالغ بعضهم فجعلها لتأبيد النفي بما هو معروف فى كتبهم . ولكنهم حين تعرضوا للمقارنة بين النفي « بما » و « بلم » لم يهتدوا إلى قوة « لم » من ناحية النفي واهتموا فقط بجزمها وبزمن الفعل معها اللهم إلا تلك الاشارة المقتضبة التى رويت فى كتاب سيبويه والتى لا تستند على نص عربي واضح حين قال فى صفحة ٤٠٨ من الجزء الأول :

إذا قال فعل فنفيه لم يفعل

وإذا قال لقد فعل فنفيه ما فعل

لأنه كأنه قال والله لقد فعل فقال والله ما فعل »

فيفهم من قول سيبويه أن النفي « بما » آكد من النفي «بلم»

ولعل هذا السهو الذى وقع فيه سيبويه لم يكن إلا نتيجة اختصاص « ما » بوقوعها فى جواب القسم بخلاف « لم » التى لا تكون جوابا للقسم .

على أن التوكيد فى حالة « ما » مع القسم ليس من عمل الأداة وإنما هو من عمل القسم الذى لا ينكر أحد أنه يؤكد معنى الجملة نفيا وإثباتا فالنفي بما الذى يحتاج فى توكيده إلى القسم لا شك أضعف من النفي «بلم» التي لا تكون جوابا للقسم .

ألا ترى إلى الآية الكريمة :

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » .

ولا شك أن المجال هنا مجال توكيد عدم إيمانهم .

وإن استقراء الأساليب العربية سيؤيد ما أذهب اليه من أن النفي « بلم » آكد من النفي بأداة بسيطة مثل « ما » . على أن قوة الأداة وضعفها خاضع للتطور اللغوى فقد نجد بعض الأمثلة التى استعملت فيها « لم » ولا نلمح فيها تأكيدا للنفي . وذلك لأن التطور الذى نرجح أنه مر على اللغة العربية وفيه استعملت الأدوات المركبة

تأكيد النفى قديم بعيد فى القدم . فليس غريبا أن نجد النفى « بلم » قد فقد شيئا من قوته فى بعض الأمثلة العربية التى رويت لنا .

أما « إلا » التى خصصت بالاستثناء فأذا أمعنا فى النظر فى معناها وجدناها لا تخرج عن النفى المراد به تأكيد النفى . وقد تنبه بعض النحاة لشىء من هذا مثل ابن يعيش حين يقول فى باب الاستثناء : « فإلا تخرج الثانى مما دخل فى الاول فهى فيه حرف النفى فقولنا قام القوام إلا زيداً بمنزلة قام القوم لازيد » .

ولهذا يجب ألا نفهم من أمثال الآية الكريمة « وما محمد إلا رسول » أنه تعالى يريد أن يؤكد الرسالة لمحمد . فطرق التوكيد فى حالة الاثبات لها وسائل أخرى كالقسم وإن وغير ذلك ، بل المراد من الآية نفى أية صفة أخرى عن محمد . ومثل هذا الاستعمال له مجاله ومقامه . وقد استعمل هنا لدفع الشك فى نسبة صفة أخرى لمحمد .

على أن شيوع « إلا » فى الاستعمال جعل لها صفات خاصة ليست لغيرها من أدوات النفى المركبة . ولهذا أفردت لها الأبواب وخصصت باستعمالات جمعها السيوطى فى كتابه الاتقان فقال « وهى على أوجه أحدها الاستثناء متصلا أو منقطعا والثانى أن تكون بمعنى غير والثالث أن تكون عاطفة والرابع بمعنى بل » .

وفى معظم هذه الأوجه لا تخرج « إلا » عن أن تكون أداة نفى مركبة .

أما « ما إن » فلا معنى لأن نفر من تفسيرها كأداة مركبة للنفى ونقول كما فعل النحاة إن « إن » زائدة .

وهذه الأداة لم ترو لنا على تلك الصورة القديمة — أعنى ما إن — فى القرآن الكريم ولكن رويت لنا فى الاشعار القديمة مثل قول عبدالله بن ثعلبة الحنفى :

وما إن يزال رسم دار قد اخلقت ويبت لميت بالفناء جديد

أما الصورة الجديدة لهذه الاداة المركبة فهى « من » التى تفيد التنصيص على العموم فالمراد بقوله تعالى : « وما يخفى على الله من شىء » تأكيد نفى الخفاء على الله باكمل قدره .

وليس يعنينى شرح كيف تطورت « ما إن » إلى « من » بل يكفى أن أرجح أن همزة « إن » سهلت أولا ثم انكمشت الاداة لكثرة استعمالها فكان حقها أن تصبح « من » بفتح الميم ولكن التباس « من » الاسمية بالحرفية جعل القياس يلعب دوره . فقيست هذه الأداة بمن الجارة التى تشاركها فى الحرفية وتنطق بها « من » بالكسر .

والقياس اللغوى يلعب دوراً كبيراً فى تشكيل كثير من المظاهر اللغوية حتى فى لغة الاطفال بما هو معترف به بين المحدثين من علماء فقه اللغة philology هذا إلى أن « من » هذه قد اختلفت أيضا عن « ما إن » فى موضعها من الكلام .

بقيت كلمة أخيرة وهى أن الميم التى هى أحد أصوات الشفة قد قلبت أحيانا إلى صوت شفوى آخر وهو الباء فى أكثر من ظاهرة لغوية . فنحن نعرف هذا فى اللهجات العربية القديمة وهو يروى لنا فى كتب الاقدمين كلهجة شائعة فى قبيلة مازن فيقولون (بالسمك) فى (ما اسمك) .

ولهذا يرجح عندى أن صوت الميم فى أداة النفى (ما) قد قلبت (باء) فى بعض اللهجات القديمة وأدى هذا إلى استعمال الباء أداة نفى . وهو ما نرى أثره ظاهرا فى خبر ليس و(ما) .

وقد أجمع النحاة على أن النفى مع الباء فى خبر ليس « وما » آكد منه بدونها وإن ضلوا الطريق السوى فسموها مع هذا زائدة !! فالمراد من قوله تعالى « وما ربك بظلام للعبيد » ليس إلا تأكيد نفى الظلم عنه سبحانه وتعالى فتكررت هذا أداة النفى فى موضعين مختلفين .

وترتب على انقلاب الميم « باء » أن وجدنا بين أدوات النفى أداتين مركبتين للنفى أيضاً هما « بل » ، « بلى » . وقد أغفانا بعض النحاة عن القول إن « بلى » تطور « لبل » فقد روى هذا عنهم وهو مذكور فى المطولات من كتب النحو .

وهاتان الاداتان بل ، بلى تؤكدان معنى النفى فى الاستعمال وإن اختلفتا بعض الشىء عن اخواتهما من الادوات المركبة الاخرى . وتتحد هاتان الاداتان فى أن كلا منهما تستعمل جوابا لكلام قبلها فتنفيه . ففى حالة « بل » الامر بين واضح

المراد من قوله تعالى « أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق » تأكيد نفى الكلام الذى قبلها وهو أم يقولون به جنة . وهذا النزع من الاستعمال « لبل » هو الشائع الغالب .

أما « بل » فرغم أنها دائما تبطل الكلام الذى قبلها وتؤكد نفيه فلها استعمالان شهيران : الاول استعمالها بعد استفهام دخل على نفى مثل « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه . بلى » « قبلى » فى هذا الموضع تنفى نفياً مؤكداً الكلام الذى قبلها مع التوبيخ والتقريع . الثانى أن تكون رداً على النفى المنفى فى الكلام قبلها فتبطله وتنفيه نفيا مؤكداً يترتب عليه بطبيعة الحال إثبات ضده وهذا هو الاستعمال الوحيد الذى يتكون فيه نفى النفى بالمعنى المنطقى أو الرياضى والذى ينتج الاثبات لان النفيين فى هذا الموضع وقعا فى كلامين لا فى كلام واحد فهو بمثابة قول اثنين من الناس أمام القاضى :

— ما أخذت ماله فيرد الآخر ويقول :

— هذا غير صحيح

فليس هذا الاستعمال بمانع لنا من القول إن « بلى » تفيد نفى النفى أو تأكيد نفى فى جملتها وهى تكون بذاتها جملة مستقلة لاتستعمل إلا إذا سبقها كلام . ما نتيجة الكلامين فهو شىء آخر غير ماتحن بصدده من أن نفى النفى فى الكلام الواحد تأكيد للنفى من الناحية اللغوية .

قد تتكرر الأداة فى الاسلوب العربى فتستعمل فى الجملة الواحدة عدة أدوات نفى فلا تفيد إلا تأكيدا للنفى رغم هذا التكرار . ففى مثال « وما من إله إلا الله » خمس أدوات للنفى .

ابراهيم أنيس
المدرس بجامعة فاروق